التغير الدلالي في كتاب درة الغواص في أوهام الخواص للحريري

Semantic Change in Durrat al-Ghawwas fi Awham al-Khawass by al-Hariri

ياقوتة لزرقي[1]*

[1] جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)

y.lazergui@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2026-03-02 تاريخ القبول: 2026-05-03 تاريخ النشر:2026-06-01

ملخص البحث

اهتم علماء اللّحن في التراث اللساني العربي بالدّلالة وذلك بمراعاة أمرين: الأوّل وصفي يبرز الدّلالات الصّوتيّة والصرفية والنحوية والمعجميّة التي نتجت عن العدول في الكلام سواء بالتحرّك من الصواب إلى الخطأ أو العكس، والثاني تاريخي يركز على التغير أو التطور الدلالي الذي لحق المعنى. والملاحظ على كتب اللحن التي تركها لنا السّلف أنّها تقدّم لنا نماذج تطبيقية حيّة للنشاط الدلالي في كل حقبة من تاريخ حضارتنا الزّاهرة.

ونسعى في هذه الدراسة إلى مكاشفة قضايا التغير الدلالي في مؤلف وازن من مؤلفات اللحن والتثقيف اللغوي، ويتعلق الأمر بدرة الغواص في أوهام الخواص للقاسم بن علي الحريري.

الكلمات المفتاحية: تغير دلالي- دلالة- اللحن- تعميم- تخصيص-نقل.

Abstract:

Scholars of linguistic error in the Arabic tradition approached semantic deviation from two perspectives: a descriptive approach that examines phonetic, morphological, syntactic, and lexical deiations, as well as semantic change.

This study explores semantic change in classical works on linguistic error, with special focus on Durrat al-Ghawwas fi Awham al-Khawass by Al-Qasim ibn ali al-hariri.

Keywords:

Semantic change- Semantic- Generalization- Specification- Transfer.

* **المؤلف المرسل**: ياقوتة لزرقي

أولا/ التّعريف بالمؤلَّف –درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ–

يُشير عنوان الكتاب بوضوح إلى توجهه نحو نخبة المثقفين، حيث يوضح المؤلف في مقدمته هدفه الرئيسي من تأليفه، يقول الحريري صراحةً: "فإنّي رأيت كثيراً ممّن تَسَنَّمُوا أَسْنِمَةَ الرُّتَبِ، وَتَوَسَّمُوا بِسِيمَةِ الأَدَبِ قَدْ ضَاهَوْا الْعَامَّةَ فِي بَعْضِ مَا يَفْرُطُ مِنْ كَلَامِهِمْ، وَتَرْعَفُ بِهِ مَرَاعِفُ أَقْلَامِهِم مِمَّا إِذَا عُثِرَ عَلَيْهِ، وَأُثِيرَ عَنِ الْمَعْزُوِّ إِلَيْهِ خَفِضَ قَدْرِ الْعِلِّيَّةِ، وَصَمَّ ذَا الْحُلِيَّةِ، فَدَعَانِيَ الْأَنَفُ لِنَبْهَةِ أَخْطَارِهِمْ، وَالْكَلَفُ بِإِطَابَةِ أَخْبَارِهِمْ، إِلَى أَنْ أَدْرَأَ عَنْهُمُ الشُّبَهَ، وَأُبَيِّنَ مَا الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ وَاشْتَبَهَ... فَأَلَّفْتُ هَذَا الْكِتَابَ تَبْصِرَةً لِمَنْ تَبْصَرَ وَتَذْكِرَةً لِمَنْ تَذَكَّرَ، وَسَمَّيْتُهُ "دُرَّةَ الْغَوَّاصِ فِي أَوْهَامِ الْخَوَاصِّ" [1].

يُبرِز هذا النص الدافع النّفسي والثقافي وراء التأليف، إذ ينتقد الحريري سوء استخدام الأدباء والمثقفين للألفاظ العربية الفصحى، مما يُسقط مكانتهم إلى مستوى العامة، من هنا يهدف الكتاب إلى تصحيح هذه الأخطاء وكشف الالتباسات اللغوية، ليكون دليلاً تبصيريًا وتذكيريًا للنخبة.

وقد حقق الحريري هذا الهدف من خلال تضمين كتابه مجموعة من الأمثلة على الألفاظ والعبارات التي حُرِّفَت عن سياقها الأصلي الصحيح الذي ارتضته فصحاء اللغة العربية الكلاسيكية، مما يعكس منهجية نقدية دقيقة في علم اللسانيات والأدب.

لم يسلك الحريريُّ في ترتيب مادَّةِ كتابِهِ «**دُرَّةُ الْغَوَّاصِ**» مَنْهَجًا مُنْظَمًا مُحَدَّدًا، بَلْ سَاقَهَا بِطَرِيقَةٍ تَقْرِيبًا عَشْوَائِيَّةٍ تَتَّبِعُ مَوْقِعَ الْخَطْأِ فِيْ النُّصُوصِ، وَيُمْكِنُ تَصْنِيفُ مَا أَفْرَدَهُ فِيْ الْمَوَاضِيعِ الْآتِيَةِ:

1_تَحْرِيفُ الدَّلَالَةِ اللَّفْظِيَّةِ:

وذلك على نحو "**التَّتَابُعُ**" صَارَتْ بِمَعْنَى "**التَّوَاتُرِ**" رَغْمَ فَرْقِهِمَا الْبَيْنَانِيِّ الَّذِيْ بَيَّنَهُ الْحَرِيرِيُّ[2]، وكذلك"**الْمَأْتِمُ**" قُصِرَتْ عَلَىْ اجْتِمَاعِ النِّسَاءِ فِيْ الشَّرِّ، بَيْنَمَا عِنْدَ فُصَحَاءِ الْعَرَبِ هِيَ اجْتِمَاعُهُنَّ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ [3]، ومنه لفظة "**أَزَفَّ**" انْتَقَلَتْ مِنْ "**دَنَا وَاقْتَرَبَ**" إِلَىْ مَعْنَاهَا الْمُضَادِّ "**انْقَضَىْ وَتَصَرَّمَ**"[4].

2_ الْمُخَالَفَةُ لِلْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ وَالصَّرْفِيَّةِ:

شَغَلَ هَذَا الْبَابُ حيزاً أَوْسَعَ فِي الْكِتَابِ، مِنْ أَبْرَزِ أَمْثِلَتِهِ:" **زَيْدٌ أَفْضَلُ إِخْوَتِهِ**" وَهُوَ مُتَعَارِضٌ مَعَ قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ، والْأَصْحُ "زَيْدٌ أَفْضَلُ الْإِخْوَةِ" أَوْ "زَيْدٌ أَفْضَلُ بَنِي أَبِيهِ"، وَبَيَّنَ الْحَرِيرِيُّ عِلَّتَهُ نَحْوِيًّا [5]، ومنه أيضا إخلالهم بالكثير من صيغ الجموع على نحو ما جاء في **جَمْعِ "حَاجَةٍ"** عَلَى **"حَوَائِجُ"** بَدَلَ الْأَصْحِ **"حَاجَاتٌ"**، مَعَ تَفْصِيلِ وُجُوهِ الصَّوَابِ الصَّرْفِيِّ[6].

3_ عدم التمييز بين المعاني النّاجِمِ عن اقتراب البنية الصَّوْتِيَّةِ لِلْكَلِمَةِ كِدَلِيلٍ أَدَاءِيٍّ قَوِيٍّ فِيهَا:

وقد مسّ هذا النّوع من اللّحن العديد من الألفاظ سواء كان ذلك بسبب ما يُعرف بالتّبادل الصّوتي في الكلمة كاستخدامهم لفظتي " الحثّ" و"الحضّ" بمعنى واحد وقد وبينهما فرق[7]، أو بتغيير إحدى حركاتها كجهلهم الفرق بين **"الْخَطْأ"** (بفتح الخاء: الخلل المعنويّ) و"الْخِطْءِ" (بكسرها: الخلل العمليّ في الفِعْلِ أوِ الحَرَكَةِ)، حيثُ يُخْلِفُ هَذَا التَّبْدِيلُ الصَّوَابَ الْفَصْحَوِيَّ وَيُؤَدِّيْ إِلَىْ انْحِرَافٍ دَلَالِيٍّ فِيْ الْمَعْنَىْ وَالْوَظِيفَةِ اللَّفْظِيَّةِ[8]، أو بتغيير إحدى حركاتها كجهلهم الفرق بين "الخَطأ" و "الخِطئ"[9].

4_ الْخَطْأُ الْإِمْلَائِيُّ النَّاتِجُ عَنْ جَهْلِ الْقَوَاعِدِ أَوْ إِغْفَالِ الْفُونِيمَاتِ الْفَوْقَطْعِيَّةِ كِتَابَةً:

يَتَجَلَّى الْخَطْأُ الْإِمْلَائِيُّ مِنِ الْأَوْلَى فِيْ عَدَمِ تَمْيِيزِهِمْ بَيْنَ مَا يُكْتَبُ بِوَاوٍ وَاحِدَةٍ وَمَا يُكْتَبُ بِوَاوَيْنِ.

أَمْثِلَةٌ:

- **وَاوُ الْجَمَاعَةِ** :تُكْتَبُ **وَاوًا وَآلِفًا** لِلْفَارْقَةِ (كَتَبُواْ، ذَهَبُواْ)
- **وَاوُ الْأَصْلِيَّةِ** :تُكْتَبُ **وَاوًا وَاحِدَةً** فَقَطْ (نَادَىْ، رَجَا)

هَذَا الْخَلْطُ يُفْضِيْ إِلَىْ انْحِرَافٍ فِيْ الْقِرَاءَةِ وَالْإِعْرَابِ، إِذْ تُحْمَلُ الْوَاوُ الْمُضَاعَفَةُ عَلَىْ مَعْنَىْ الْجَمَاعَةِ بَيْنَمَا هِيَ أَصْلِيَّةٌ فِيْ الْفِعْلِ، أَوْ عَكْسَ ذَلِكَ فِيْ الْأَفعَالِ الَّتِيْ تَحْتَاجُ إِلَىْ الِفِ الْفَارْقَةِ لِتَمْيِيزِهَا عَنْ وَاوِ الْجَمَاعَةِ[10]،وتَظْهَرُ الْثَّانِيَّةُ فِيْ مِثَالِ لَفْظَةِ «كُلَّمَا» الَّتِيْ يُكْتَبُوهَا مَوْصُولَةً دَائِمًا دُونَ مَرْاعَاةِ الْوَقْفِ فِيْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ.

وتُفْصَلُ «كُلَّمَا» عِنْدَ الْوَقْفِ لِتَمْيِيزِهَا عَنِ الْمَعْنَىْ الْمُتَّصِلِ، إِذْ تُحْمَلُ الْوَصْلُ عَلَى الْاتِّصَالِ السِّيَاقِيِّ بَيْنَمَا يُشِيرُ الْفَصْلُ إِلَىْ انْقِطَاعِ التَّلَاقُتِ فِيْ الْقِرَاءَةِ وَالْوَقْفِ.[11].

حظيت "درّة الغوّاص" بشُهرةٍ وَاسِعَةٍ فِي عَصْرِ الْحَرِيرِيِّ وَاسْتَمَرَّتْ إِلَى الْعُصُورِ الْمُتَأَخِّرَةِ، مِمَّا يَشْهَدُ لَهُ إِقْبَالُ الْعُلَمَاءِ عَلَيْهَا بِالشُّرُوحِ وَالتَّحْلِيلَاتِ وَالتَّرْتِيبِ وَالرُّدُودِ.

وَيُظْهِرُ ذَلِكَ الْإِقْبَالُ قِيمَتَهَا الْعِلْمِيَّةَ الْدَّائِمَةَ، وَمِنْ أَشْهَرِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ بَادَرُوا إِلَى شَرْحِهَا وَنَقْدِهَا:[12]

_ أبو محمّد عبد الله ابن برّي(ت582هـ): وضع على الدّرّة حواشي وردود مفيدة.

ـ ابن منظور الإفريقي: رتّبها في كتاب أسماه "تهذيب الخَواصّ من درّة الغوّاص".

ـ شهاب الدّين الخفّاجي(ت1069هـ) : وضع عليها شروحا وتعليقات وردود.

ـ محمّد الحسيني المعروف بآلوسي زاده(ت): جمع عليها شروحا لمن سبقه إليها في كتاب أسماه" كشف الطّرّة عن الغرّة"، حيث قام فيه بترتيب ألفاظ الحريري ترتيبا هجائيا.

وقد سلك الحريري في درّته طريق المتشدّدين بحرصه البالغ على انتقاء الأفصح والمطّرد من كلام العرب الفصحاء، وعليه كان منهجه في معالجة القضايا على النّحو الآتي:

ـ الْاسْتِشْهَادُ الْقُرْآنِيُّ كَمَنْهَجٍ أَسَاسِيٍّ:

تَكْتَنِزُ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ فِيْ صَفْحَاتِ الْكِتَابِ لِتَأْكِيدِ صِحَّةِ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْحَرِيرِيُّ، حَتَّىْ أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ بِالْقِرَاءَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، بَلْ نَسَبَ بَعْضَهَا إِلَىْ اللَّحْنِ، كَمَا فِيْ تَخْطِئَتِهِ لِقَوْلِهِمْ: "فُلاَنٌ أَشَرُّ مِنْ فُلاَنٍ"، حَيْثُ قَالَ: "فَأَمَّا قِرَاءَةُ أَبِيْ قُلَّابَةَ":﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الكَذَّابُ الأَشَرُّ﴾[13](على وزن أفعل) فقد لحن فيها، ولم يُطابقه فيها أحد"[14].

ـ لحذر الشديد في الاستفادة من اللغات الأجنبية:

يَتَمَيَّزُ الْحَرِيرِيُّ بِحِرْصِهِ الْمُبَالِغِ فِيهِ عَلَىْ أَخْذِ الْمَشْهُورِ الْمُبْنِيِّ عَلَىْ الْقِيَاسِ الْمُطَّرِدِ، إِذْ يُقَصِّرُ الشَّوَاذَّ لَدَيْهِ "عَلَىْ السَّمَاعِ، وَلاَ يُقَاسُ عَلَيْهَا بِالْإِجْمَاعِ"[15] فهو لَمْ يَقْبَلْ الْقِيَاسَ عَلَىْ لَهْجَةِ تَمِيمٍ الَّتِيْ تُصَحِّحُ صِيْغَةَ مَفْعُولٍ مِنَ الْأَجْوَفِ الْيَائِيِّ، وَيُخَطِّئُ قَوْلَهُمْ "مَبِيعُوضْ" وَ"مَعِيُوبْ" [16]، وَيَنْسبُ الْأَمْرُ ذَاتَهُ إِلَىْ انْتِخَابِهِ الشُّعَرَاءَ، حَيْثُ أَخَذَ الْأَشْعَارَ عَنْ شُعَرَاءِ الطُّبَقَاتِ الْأُولَىْ فَقَطْ، وَلَمْ يَسْتَأْمِرْ طَبَقَةَ الْمولدينَ فِيْ مَعْرِفَتِهِ بِالْفَصْحَىْ.

ـ الانحراف عن الالتزام الكامل بِاسْتِعْمَالَاتِ الْعُلَمَاءِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ:

لا يرى الحريريُّ في استعمالاتِ الشواذِّ مَا يُبِيحُ قَبُولَهَا، وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِيْ تَخْطِئَتِهِ لِلْأَصْمَعِيِّ فِيْ تَصْغِيرِ "مُخْتَارٍ" عَلَىْ "مُخَيْتِيرْ"، الَّتِيْ يَصِفُهَا بِـ«غَلَطٍ أُودِعَ بُطُونَ الْأَوْرَاقِ، وَتَنَاقَلَهُ الرُّوَاةُ فِيْ الْآفَاقِ[17]، يبدو تشدُّدُ الحريريّ كمحاولةٍ لإعادةِ اللّغةِ إلى عصورِها الفصيحةِ الأولى، غيرَ أنَّ طبيعَتَها المتطوّرَةَ تُعَسِّرُ تحقيقَ ذلكَ كليًّا، ورَغْمَ عدمِ استخدَامِهِ مصطلحَاتِ علمِ الدَّلالَةِ الحديثَةِ المعْرُوفَةِ، فإنَّ كِتابَهُ يَكْشِفُ عنْ وَعْيٍ عَمِيقٍ بِمَبَادِئِهَا، يَتَجَلَّى فِي مُمَارَسَتِهِ الدَّقِيقَةِ لِمَنَاهِجِهَا التَّحْلِيلِيَّةِ.

ولعلّ أهمّ ما يصيب اللّغة باعتبار ما هي عليه من ديناميّة وحركيّة تطوُّريّة دائمة هو تغيّر دلالة الكلمة المعجميّة النّاتج عن تعميمها أو تخصيصها أو الانحراف بمعناها العرفي إلى معان أخرى فنّيّة تسمّى المعاني المجازيّة كالتّشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل وغيرها، ثمّ ما تلبث هذه المعاني والألفاظ أن تكتسب عرفيّة جديدة مشفوعة بمعيار التّداول والشّيوع فيحدث ما يُعرف بالتّغيّر الدّلالي *semantic change.

1_ مفهوم التّغيّر الدّلالي:

يدخل التّغيّر الدّلالي ضمن اهتمامات علم الدّلالة الحديث، خاصّة علم الدّلالة التّاريخي الّذي" يُعنى بدراسة تغيير المعنى عبر الزّمن"[18]، فالمفردات غير مستقرّة على حال وإنّما تتبع البيئة الّتي تُتَداول فيها وتتأثّر بها[19]. وقد تنبّه اللّغويّون القدماء إلى ظاهرة التّغيّر الدّلالي الّتي تصيب الكلمات وسجّلوا ذلك في معجماتهم، منهم أبو القاسم الزّمخشري صاحب أساس البلاغة، الّذي أولى فيه عناية كبيرة بالمجاز الّذي يُعدّ من أهم عوامل التّغيّر الدّلالي، مثل كلمة"بسق" الّتي تطلق على النّخلة، ومنه يُقال: بسقت النّخلة، وتطلق مجازا على الأشخاص فيقال: بسق فلان على قومه بمعنى علا ذكره وارتفعت مكانته عندهم[20]، كذلك تحدّث أبو منصور الأزهري في تهذيبه عن تطوّر دلالة الكلمات وأورد العديد من الأمثلة على ذلك كما هي الحال في لفظة" عاهن" أي كسلان، وأصلها أن يتقصّف القضيب من الشّجرة ولا يبين منها فيبقى مُعلّقا مُسترخيّا"[21]. وفي هذين المثالين دليل على تغيّر دلالة الكلمات بفعل الاستخدام المجازي الّذي يشمل حيّزا كبيرا في اللّغة العربية.

2_أ_ أسباب التّغيّر الدّلالي:

يحدث التّغيّر الدّلالي بفعل أسباب داخليّة وأخرى خارجيّة، أمّا الدّاخليّة فتشمل كلّ ما يتّصل باللّغة من قوانين صوتيّة، وصرفيّة، ونحويّة، وما يطرأ عليها من تغيّرات، وإن كان ذلك التّغيّر في بدايته آخذا شكل الانحراف إلّا أنّه بعد مرور مدّة من الزّمن يغدوا عرفا متواضعا عليه[22] فالتّقارب الصّوتي بين كلمتين مختلفتين مثلا قد يُفضي نتيجة سوء النّطق أو سرعته إلى تحريف يجعلها بعد ذلك من كلمات المشترك اللّفظي[23]. أمّا الأسباب الخارجيّة فتتمثّل في العوامل الاجتماعيّة، والتّاريخيّة، والنّفسيّة الّتي لها أثر بالغ في تغيير المعنى[24]. ويمكن حصر هذه العوامل في النّقاط الآتية:[25]

أ_أ_ الاستعمال:

مدلول الكلمة قابل للتّغيّر نظرا لاستعمالاتها المختلفة عبر الزّمن، لأنّ اللّغة غير ثابتة وإنّما هي متداوَلة بين أفراد المجتمع عن طريق الأذهان والنّفوس المتباينة بين أفراده[26].

أ_ب_ الانتقال:

لأنّ الاستخدام المجازي للكلمات من شأنه أن يُغيِّر من دلالاتها الحقيقيّة[27]

أ_ت_ عامل الزّمن:

ذلك أنّ الزّمن يؤثّر تأثيرا بالغا في مفردات اللّغة باعتبار أنّ الكلمة يمكن أن تكون ذات دلالة ما عند السّلف ثمّ تتحوّل بفعل الزّمن إلى دلالة جديدة.[28]

أ_ث_ سوء الفهم:

وغالبا ما يكون ذلك نتيجة التقارب بين أصوات بعض الكلمات الّتي يؤدّي سوء النّطق بها مثلا إلى تحويلها عن دلالتها الخاصّة بها إلى دلالة كلمة أخرى فينتج عن ذلك ما يُعرف بالمشترك اللّفظي.

أ_ ح_ الحاجة:

وذلك نتيجة متطلّبات العصر بما فيه من أشياء جديدة في حاجة إلى مسمّيات، الأمر الّذي ألجأ اللّغويين إلى ما يُعرف بإحياء التّراث، والتّرجمة، والتّعريب وغير ذلك من الطّرق المستحدثة الّتي من شأنها تغيير دلالات الكلمات.

وينتج عن هذه العوامل أشكال متعدّدة للتّغيّر الدّلالي.

3_أ_ أشكال التّغيّر الدّلالي:

أجمع اللّغويّون على أنّ أشكال التّغيّر الدّلالي تتمثّل في ثلاثة مظاهر رئيسة وهيّ:[29]

أ_أ _تخصيص الدّلالة_narrowing:

بتحويل الدّلالة من المعنى العام إلى المعنى الجزئي بتضييق مجالها[30]، مثال ذلك لفظة "هوى" الّتي أصبحت تدلّ على الهبوط فقط إلّا أنّ الحريري قد وضّح أصل وضعها الّذي مفاده الإسراع الّذي قد يكون في الصّعود والهبوط[31]، وكذلك "الرّاحلة" الّتي أصبحوا يُطلقونها على النّاقة النّجيبة فقط ووجه الكلام لديه أنّها تقع على الجمل والنّاقة[32]، ويمكن أن يكون هذا النّوع من التّغيّر متّصلا بالزّمن نتيجة ما ذكره الحريري عن مخالفة العرب بين ألفاظ متّفقة المعاني لاختلاف الأزمنة "وقصرها

أسماء الأشياء على وقت دون الآخر،كما في تسميّتهم لشرب الغداة صبوحا، وشرب العشيّة غبوقا، وشرب نصف النّهار قيلا، وشرب أوّل اللّيل فحما، وشرب السّحر جاشريّة. كما قالوا: إنّ السّراب لا يكون إلّا نصف النّهار، والفيء لا يكون إلّا بعد الزّوال"[33].

ومن أمثلة تخصيص الدّلالة أيضا لفظة "بهيم" الّتي يصفون بها اللّون الأسود فقط وهي عند العرب" اللّون الخالص الّذي لا يُخالطه لون آخر"[34]، ومن ذلك أيضا قصرهم بعض الألفاظ على الاستعمال في الشّر دون الخير كلفظة "تهافت الّتي تستعمل في المكروه والحزن، وكلفظة أشفى الّتي لا تقال إلّا لمن أشرف على الهلكة، وكالأرق الّذي لا يكون إلّا في المكروه(...) ولكلّ ما يثور للضّرر هاج..."[35].

أ_ب _ تعميم الدّلالة_wedning:

وذلك بتوسيع معنى اللّفظ من الخاص إلى العام[36]، من ذلك لفظة "القافلة" الّتي اتّسعت لتدلّ على الرّفقة الخارجة من الوطن بعد أن كانت مختصّة بالرّفقة العائدة فقط[37]، ولفظة "سائر" الّتي يستعملونها بمعنى الجميع وهيّ في كلام العرب بمعنى الباقي، ولذلك قيل لما يبقى بالإناء سؤر قليلا كان أو كثيرا[38]، ومن أمثلة تعميم الدّلالة أيضا قولهم:"جرح الرّجل في «ثديه»، (...) والصّواب أن يُقال جُرح الرّجل في ثندوءته، لأنّ الثّدي يختصّ بالمرأة والثّندوءة بالرّجل"[39]. ونظير ذلك لفظة "الدّرج" الّتي أصبحت تُطلق على ما يُرتقى فيه وما يُنحدّر منه، إلّا أنّ أصل وضعها أن تدلّ على ما يُرتقى فيه فقط[40].

أ_ج_ انتقال الدّلالة_metonymy:

وذلك بعدّة وسائل أحصينا منها في الدّرّة ما يأتي:

1_ الاستعارة:

ومثال ذلك لفظة "مشورة" الّتي "اختُلف في اشتقاق اسمها، فقيل إنّه من قولك شرت العسل أشوره، إذا جنيته فكأنّ المستشير يجتني الرّأي من المستشار"[41] كما يُجتنى العسل. ومن ذلك أيضا لفظة "شحاذ" الّتي اشتُقّت من قولهم: شحذت السّيف إذا بالغت في إحداده، فكأنّ الشّحاذ هو الملحّ في المسألة والمبالِغ في طلب الصّدقة[42].

2_ الانتقال نحو المعاني المضادّة:

مثل "أزف" الّتي كانت بمعنى دنا الشّيء واقترب ثمّ أصبحت بمعنى حضر ووقع، فنجدهم يقولون: أزف وقت الصّلاة إشارة إلى تضايُقه ومشارفة تصرّمه[43]. وكذلك لفظة " قَطّ" الّتي استعملها العرب فيما مضى من الزّمان إلّا أنّ دلالتها انتقلت إلى المعنى المضاد في مثل قولهم: لا أكلّمه قَطّ[44]. و"المأتم" الّتي عادة ما تُستخدم بمعنى مجمع المناحة، وهي عند العرب اجتماع النّساء في الخير والشّر[45].

3_ المجاز:

ومن ذلك ما ذكره الحريري في أنّه لا يجب إطلاق لفظة "الكأس" على الإناء إلّا إذا كان مملوءًا بالشّراب، فيما لو حملناها على المجاز المرسل يمكن أن يكون إطلاقها باعتبار علاقة الحلول[46].

4_ إطلاق الكلّ على الجزء:

من ذلك قولهم: سار ركاب السّلطان إشارة إلى مَوكبه المشتمل على الخيل والرّجل وأجناس الدّواب، إلّا أنّ العرب قد قصرت هذه اللّفظة_ركاب_ على الإبل[47].

ولعلّ هذه التّغيّرات الّتي تطرأ على المعنى هي أحد الأسباب الّتي ينتج عنها ما يُعرف بالعلاقات الدّلاليّة*، فمن كلام العرب" اختلاف اللّفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللّفظين والمعنى واحد، واتّفاق اللّفظين واختلاف المعنيين"[48]، الأمر الّذي أدّى إلى تضخّم المعجم العربي[49].

4_ أثر التّغيّر الدّلالي على مفردات اللّغة:

من خلال ما تقدّم ذكره من أشكال التّغيّر الدّلالي يُمكن الوقوف على أثره في إيجاد العلاقات الدّلاليّة الآتيّة:

1_ علاقة الأضداد_antonymy:

والمقصود بالأضداد أن يدلّ اللّفظ الواحد على معنيين متضادّين[50]، ومن خلال الدّرّة اتّضح لدينا بأنّه قد يكون في المفردة كما أنّه قد يكون في الأحوال الإعرابيّة:

أ_ الأضداد في المفردة:

مثل: لفظة "المأتم" الّتي سبق وأن أشرنا إلى دلالتها على اجتماع النّساء في الخير والشّر، إلّا أنّ هذا ليس أصل وضعها باعتبار أنّ الكلمات لم توضع للمعنيين المتضادّين أوّل الأمر، وإنّما وُضعت لأحدهما ثمّ جدّت عوامل مختلفة أدّت إلى إطلاقها على المعنى المضادّ وهو ما تفطّن إليه علماء اللّغة فقالوا: "إذا وقع الحرف على معنيين متضادّين، فالأصل لمعنى واحد، ثمّ تداخل الاثنان على جهة

الاتّساع"[51]، ونظير المأتم لفظة "البشارة" الّتي تستخدم كذلك في الخير والشّر، أمّا استخدامها في الخير فهوّ شائع ولا حاجة لتوضيحه، وأمّا استخدامها في الشّر فقد استشهد عليه الحريري بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيم﴾[52].

ب_ الأضداد في الأحوال الإعرابيّة:

وهو ما تمثّل في قوله تعالى:﴿بِأَلْفٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[53]، يُحتمل أن يكون التّقدير " مُرْدَفِينَ" فيلزم على هذا أن تكون الملائكة مفعولا بها، ويُحتمل أن يكون التّقدير" مُرْدِفِينَ" فيلزم على ذلك أن تكون الملائكة هي الفاعل[54].

2_ علاقة التّرادف_ synonymy:

التّرادف على نحو ما جاء في قول سيبويه هو دلالة الألفاظ المختلفة على معنى واحد[55]،وإن كانت الدّلالة متفاوتة؛ لأن" التّرادف التّامّ نادر الوقوع فهو نوع من الكماليّات الّتي لا تستطيع اللّغة أن تجود بها في سهولة ويسر(...) ومعظم المترادفات ليست إلّا أنصاف أو أشباه مترادفات، لا يمكن استعمالها في السّياق الواحد أو الأسلوب الواحد دون التّمييز بينها"[56]، وهو [57]ما تمت الإشارة إليه عند التّفريق بين ألفاظ مثل: "التّتابع والتّواتر" الّذين أصبحا بفعل تعميم الدّلالة يستعملان بمعنى واحد أي مترادفين[58]، وكذلك "القيمة والثّمن" الّذين جرى عليهما إلف الاستخدام بمعنى واحد وزال الفارق بينهما[59].

3- علاقة المشترك_ homonymy:

هو دلالة اللّفظ الواحد على معاني متعدّدة[60]، إذ يمكن أن يكون نتيجة للتّغيّر الدّلالي في كثير من الأحيان، فانتقال لفظة " العمى"مثلا من الدّلالة على عمى البصر إلى الدّلالة على عمى البصيرة هو ما جعلها من المشترك اللّفظي[61]، ومثلها لفظة "الملح" الّتي سبق ذكرها[62]. ولم تقتصر مهمّة الحريري في الدّرّة على تفسير دلالات الألفاظ المفردة فقط، وإنّما تجاوز ذلك إلى ما يُعرف بالتّعبيرات الاصطلاحيّة Iidiomatic Expression الّتي يكثر تداولها بين أفراد المجتمع الواحد.

- دلالة التّعبيرات الاصطلاحيّة:

التّعبير الاصطلاحي مصطلح يُستخدم للدّلالة على سلسلة الكلمات المترابطة دلاليّا ونظميّا أيضا مؤدّية وظيفتها على أساس أنّها وحدة دلاليّة مفردة تملك معاني حرفيّة ومعنى غير حرفي وذلك

في نحو التّعبير العربي: ضرب كفّا بكفّ الّذي يحمل معنى الحيرة[63]. وتتميّز التّعبيرات الاصطلاحيّة عن غيرها من التّعبيرات بجملة من الخصائص وهيّ:[64]

ـ الثّبات في التّركيب والدّلالة.

ـ اختلاف دلالتها عن دلالة مفرداتها الّتي تتألّف منها.

ـ إمكانيّة الاستعاضة عنها بوحدات دلاليّة مفردة.

ـ صعوبة ترجمتها ترجمة حرفيّة إلى لغة أخرى، لارتباطها بالبيئة الثّقافيّة الّتي أنتجتها.

وقد وقف الحريري في درّته على العديد من هذه التّعبيرات نذكر منها: قولهم في التّعبير عن الشّخص النّادم: " **سُقِطَ في يده**"[65]، وقولهم للمنهزم: " **نظر عن شماله**"[66].

أمّا قولهم: سقط في يده، فهو تعبير مركّب من فعل + حرف جرّ + اسم مجرور، ولأنّه يبدأ بفعل فهو من النّمط الفعلي، ولعلّ أهمّ ما يُميّزه عن غيره من التّعبيرات هو إمكان الاستعاضة عنه بكلمة واحدة تحمل نفس الدّلالة كما أسلفنا الذّكر، ولكن قد يتساءل أحدهم عن الغاية من استخدامه مادمنا قادرين على اختصاره في كلمة واحدة، ونحن نعلم أنّ العرب أميل إلى الإيجاز نقول: إنّ هذه التّعبيرات تؤدّي دلالة أقوى من دلالة الكلمة المفردة لأنّ تداولها الدّائم في بين أفراد المجتمع يُكسبها قيمة دلاليّة نابعة من الخلفيّة الثّقافيّة الّتي أنتجتها.

أمّا التّعبير الثّاني: "نظر عن شماله"، ففضلا عن قيمته الدّلالية لدى مستخدميه، يحمل أيضا دلالة عقائديّة تعود إلى ما جرى عليه إلف أفراد المجتمع الواحد. فالشّمال في الثّقافة العربيّة يرمز إلى السّوء، على عكس اليمين.

خاتمة:

من خلال هذه الورقة البحثية خلصنا إلى مايأتي:

- ما عده الحريري من باب اللحن والخطأ، يفسر في الثقافة اللسانية الحديثة على أنه ظاهرة من الظواهر التي تطرأ على اللغة، فهي كالكائن الحي يعتريها التغير ويعتورها التبدل، ولعل الفرق بين نظرة اللسانيين المحدثين وخاصة الغربيين، ونظرة الحريري وغيره من التراث، أن اللسانيين المحدثين يرون أن هذا التغير حق ثابت للغة، في حين عده الحريري خرقا لنظام اللغة.

- سَعة معارف الحريري واطلاعه على مختلف فنون العربية لم تجعل منه صدى لمن سبقوه، بل كثيرا ما كان متفردا بآرائه وترجيحاته المستندة إلى التبرير العلمي الرصين.

---

[1] – الحريري، الدّرّة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة مصر، د.ط، 2009، ص11.

[2] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص13.

[3] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص118.

[4] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص15.

[5] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص15-16.

[6] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص50.

[7] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص161.

[8] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص161.

[9] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص96.

[10] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص24.

[11] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص167.

[12] – ينظر: عبد الفتّاح سليم، اللّحن في اللّغة مظاهره ومقاييسه، دار المعارف مصر، ط1، 1989ج1، ص95.

[13] – سورة الرّحمان، الآية 55.

[14]– الحريري، الدّرّة، ص39.

[15] – الحريري، الدّرّة، ص 38.

[16] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص136.

[17] – الحريري، الدّرّة، ص86.

*يذهب أحمد محمّد قدّور إلى أنّ ما عرفه الدّرس اللّغوي الحديث من سيطرة المنهج الوص في هو ما جعل الدّارسين أميل إلى استخدام مصطلح "التّغيّر_change" بدلا من "التّطوّر_développement" لارتباط هذا الأخير بمعنى التّقدّم والرّقي. وقد تنبّه القدماء لذلك منهم ابن مكّي الصّقلّي (ت501هـ) الّذي وسم عشرة أبواب من مؤلّفه "تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان" ب: "ما غيّروه...".ينظر: أحمد محمد قدّور، مبادئ اللّسانيّات، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 1999م ص323، وينظر: ابن مكّي الصّقلّي، تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان، تح: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص77-84-94-111-117-120

4– فرانك بالمر، علم الدّلالة: إطار جديد، تر: صبري إبراهيم السّيّد، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر، 1992م، ص24.

[19] – ينظر: فندريس، اللّغة، تح: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القضاس، مكتبة الأنجلو القاهرة مصر، د.ط، د.ت، ص 246.

[20] – ينظر، أبو القاسم الزّمخشري، أساس البلاغة، مادّة(ب_س_ق)،

[21] – ينظر: أبو منصور الأزهري، تهذيب اللّغة ، مادّة(ع-هـ-ن) ج1، ص145.

[22] – ينظر: أحمد محمّد قدّور، مصنّفات اللّحن والتّثقيف اللّغوي حتّى القرن العاشر الهجري، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، سوريّة، د.ط، 1996م، ص297.

[23] – ينظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللّغة،تر: أحمد مختار عمر، مكتبة دار الشباب القاهرة مصر، د.ط، د.ت، ص125.

[24] – ينظر: أحمد محمّد قدّور، مصنّفات اللّحن والتّثقيف اللّغوي حتّى القرن العشر الهجري، ص298.

[25]– ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مطبعة الأنجلو، القاهرة، مصر، ط4، 1980، ص 45

[26] – ينظر: علي عبد الواحد وافي، علم اللّغة، دار النّهضة، القاهرة، مصر، ط7، د.ت، ص319.

[27] – ينظر: عودة خليل عودة، التّطوّر الدّلالي بين لغة الشّعر ولغة القرآن، مكتبة المنار، الزّرقاء، الأردن، ط1، 1985م، ص353.

[28] – ينظر: رمضان عبد التّوّاب، لحن العامّة والتّطوّر اللّغوي، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة، مصر، ط2، 2000م، ص62.

[29] – ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص152 ، وينظر: أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص243.

[30] – ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط5، 1998، ص245.

[31] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص163.

[32] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص162.

[33] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص17-18.

[34] – الحريري، الدّرّة، ص163.

[35] – الحريري، الدّرّة، ص69.

[36] – ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص243.

[37] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص100.

[38] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص11-12.

[39] – الحريري، الدّرّة، ص154.

[40] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص46.

[41] – الحريري، الدّرّة، ص25.

[42] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص134.

[43] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص15.

[44] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص19.

[45] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص118.

[46] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص22-23.

[47] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص109.

*– وتتمثّل في: التّرادف، والأضداد، والمشترك، ومع ما كان من خلاف بين العلماء قديما وحديثا حول وُقوعها في اللّغة، إلّا أنّهم قد أجمعوا على إثباتها، حتّى أنّهم خصّوها بمؤلّفات مستقلّة، فممّا جاء في التّرادف: كتاب مااختلفت ألفاظه واتّفقت معانيه لابن خالويه، وفي الأضداد: كتاب الأضداد لابن الأنباري، وممّا أُلّف في المشترك: كتاب الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في اللّفظ واختلف في المعنى لأبي عُبَيْد القاسم بن سُلّام (ت 223هـ)، ولمزيد بسط القول، ينظر: جلال الدّين السّيوطي، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، ج1، ص287 وما بعدها.

[48]-سيبويه، الكتاب، ج1، ص7.

[49] – ينظر: رمضان عبد التّواب، فصول في فقه اللّغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط6، 1999م، ص309.

[50] – ينظر: أبو الطّيّب اللّغوي(ت351ه)، الأضداد في كلام العرب، تح: عزّة حسن، دار طلاس، دمشق، سوريّة، د.ط 1995م، ص33.

[51] – ابن الأنباري أبو بكر محمّد بن القاسم، الأضداد، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة التّراث العربي، الكويت، د.ط، 1985م، ص

[52] – سورة الانشقاق، الآية 24.

[53] – سورة الأنفال، الآية 9.

[54] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص129.

[55] – ينظر: سيبويه، الكتاب، ج1، ص7.

[56] – ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللّغة، ص97-98.

[58] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص13-14.

[59] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص51.

[60] – ينظر: جلال الدّين السيوطي، المزهر في علوم اللّغة، ج1، ص369.

[61] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص31-32.

[62] – ينظر: الحريري، الدّرّة، ص71.

[63] – ينظر، أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص33.

[64] – ينظر: عبد الكريم حسن حسن جبل،علم الدّلالة دراسة تطبيقيّة في شرح الأنباري للمُفضّليّات، دار المعرفة الجامعيّة، الأزاريطة، مصر، د.ط، 1997م، ص86.

[65] – الحريري، الدّرّة، ص108.

[66] – الحريري، الدّرّة، ص45.

المراجع:

- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مطبعة الأنجلو، القاهرة، مصر، ط4، 1980.
- أحمد محمد قدّور، مبادئ اللّسانيّات، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 1999م
- أحمد محمّد قدّور، مصنّفات اللّحن والتّثقيف اللّغوي حتّى القرن العاشر الهجري، منشورات وزارة الثّقافة،
- أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط5، 1998.
- ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللّغة،تر: أحمد مختار عمر، مكتبة دار الشباب القاهرة مصر، د.ط، د.ت.
- رمضان عبد التّوّاب، لحن العامّة والتّطوّر اللّغوي، مكتبة زهراء الشّرق، القاهرة، مصر، ط2، 2000.
- رمضان عبد التّواب، فصول في فقه اللّغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط6، 1999م.
- عبد الفتّاح سليم، اللّحن في اللّغة مظاهره ومقاييسه، دار المعارف مصر، ط1، 1989ج1.

– علي عبد الواحد وافي، علم اللّغة، دار النّهضة، القاهرة، مصر، ط7، د.ت.
– عودة خليل عودة، التّطوّر الدّلالي بين لغة الشّعر ولغة القرآن، مكتبة المنار، الزّرقاء، الأردن، ط1، 1985م.
– عبد الكريم حسن حسن جبل،علم الدّلالة دراسة تطبيقيّة في شرح الأنباري للمُفضّليّات، دار المعرفة الجامعيّة، الأزاريطة، مصر، د.ط، 1997م.
– عبد الكريم حسن حسن جبل،علم الدّلالة دراسة تطبيقيّة في شرح الأنباري للمُفضّليّات، دار المعرفة الجامعيّة، الأزاريطة، مصر، د.ط، 1997م.

– فرانك بالمر، علم الدّلالة: إطار جديد، تر: صبري إبراهيم السّيّد، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، مصر، 1992م.
– فندريس، اللّغة، تح: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القضاس، مكتبة الأنجلو القاهرة مصر، د.ط، د.ت.
– القاسم بن علي الحريري، الدّرّة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة مصر، د.ط، 2009.
– أبو القاسم الزّمخشري، أساس البلاغة، مادّة(ب_س_ق).
– أبو الطّيّب اللّغوي(ت351هـ)، الأضداد في كلام العرب، تح: عزّة حسن، دار طلاس، دمشق، سوريّة، د.ط 1995م.
– ابن مكّي الصّقلّي، تثقيف اللّسان وتلقيح الجنان، تح: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1990.
– أبو منصور الأزهري، تهذيب اللّغة ، مادّة(ع–هـ–ن) ج1.
دمشق، سوريّة، د.ط، 1996م.
– ابن الأنباري أبو بكر محمّد بن القاسم، الأضداد، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة التّراث العربي، الكويت، د.ط، 1985م.